محاولته انجاز ذلك ، والأجابة الى تساؤلاته ، وفي استخلاص استنتاجات بحثه ، بيد انه لم يستطع تجنب الوقوع في العديد من الاخطاء المنهجية والتحليلية وكذلك في الاستنتاج · فكيف استخدم اذن ، تلك المنهجية العلمية لمعالجة موضوعات كتابه ؟ والى اي مدى استطاع الاجابة بالضبط على تساؤلاته وابراز طبيعة التطور المشوه والتبعي ؟ وهل كانت تلك الاستنتاجات تتوافق مع المقدمات والوقائع التي يعرضها ؟ واخيرا ·· هل استطاع ان يفسر تفسيرا مقنعا وصحيحا اسباب « اخفاق حركة التحرر الوطني الاردنية » ؟ ·

ان الاقرار بأهمية هذه الدراسة ووظيفتها السياسية الوطنية ، وكذلك باهمية مساهمتها الجدية في اغناء كتابة « التاريخ الاجتماعي » للاقطار العربية ، تستوجب ، من وجهة نظرنا ، ابراز وتثمين تلك الاهمية ، وفي اللحظة ذاتها، تستوجب ، تصفية الحساب مع ما نراه من اخطاء · وهذا ما سنحاول القيام به في هذه المراجعة ـ المناقشة ! ·

ملاحظتان اساسيتان ، حول منهجية البحث ، ونطاق الدراسة ، لا بد من توضيحهما ، قبل الدخول في مناقشة الموضوعات الاساسية للكتاب ·

الملاحظة الاولى : بالرغم من ان المؤلف لم يعلن صراحة المنهجية التي اتبعها في بحثه ، فانه قد اشار اليها عرضا ومواربة ، وقد استخدمها في البحث والتحليل والاستنتاج · واذا كان استخدامها الصائب في احيان كثيرة، والمرتبك في احيان اخرى ، فان قول بضع كلمات حول الاشارة العرضية لتلك المنهجية ، امر تفرضه طبيعة المراجعة ـ المناقشة ، مثلما تفرضه اهمية الكتاب التي اشرنا اليها اعلاه ·

في سياق نقد المؤلف ، في مقدمة كتابه ، لما كتب عن تاريخ الاردن وقال « ان ما كتب هو وصف احداث من وجهة نظر مضادة للجماهير بالمعنى الوطني والطبقي للكلمة · اما تاريخ الحركة الجماهيرية والوطنية المناهضة للاستعمار ولسياسة الطبقة الحاكمة القائمة على الولاء للامبريالية والعداء للديمقراطية والحريات، فانه لم يكتب بعد » · وبما ان المؤلف اراد ان يكتب ، « التاريخ الاجتماعي » للاردن ، من موقف نقدي لما كتب ، فان موقعه ومنهجيته في الكتابة ، سيكونان بلا شك ، من وجهة نظر « غير مضادة للجماهير » اي من « وجهة نظر الجماهير بالمعنى الوطني والطبقي للكلمة » · بيد ان الاكتفاء بذلك لتحديد منهجية البحث ، غير كاف · ذلك لانه يفتقد الى الدقة اولا ، ويدعو الى طرح الكثير من التساؤلات والتفسيرات الغامضة ثانيا ·

فالحركة الجماهيرية والوطنية المناهضة للاستعمار ، هي تعبير عام ، وتحمل في احسن الاحوال ، معنى محددا ، هو المعنى الديمقراطي ، الذي يضم سائر المنهجيات والايديولوجيات ووجهات النظر ، من البرجوازية والبرجوازية الصغيرة حتى العمالية والماركسية او المادية التاريخية ·

ان الصراع الدائر بين منهجيات البحث التاريخي وكتابة التاريخ ، **لم يدع مجالا** للمواربة او التملص من الاعلان المحدد ، بأية منهجية يكتب الباحث · ان المؤرخ اللبناني التقدمي وجيه كوثراني ، قد أثار الشكوك حول ما اسماه بمنهجية او «وجهة نظر الجماهير » ، والتي عبر عنها في مقدمة كتابه « الاتجاهات الاجتماعية ـ السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠ » الصادر عام ١٩٧٥ والذي قال في مقدمته « اطمح واحاول ان اقرأ التاريخ من وجهة نظر الجماهير العربية ، وهي وجهة نظر قومية اولا وقبل كل شيء » · وبرغم